حقيقة التصوف

للأستاذ فوزى عرفه

أثار صديقى الأستاذ محمد رشاد عطية أمراً هاماً فى نفسى عندما تحدث عن عن الجدل الذى احتدم بين طائفة من زملائى فى دراسات الماجستير حول قيمة التصوف وكيف اعتبره بعض زملائه الأفاضل « قوة سلبية والقائمين عليه مجموعة من الدراويش من أصحاب المرقعات والعزلة والهروب من مشاكل المجتمع وصخب الحياة ويجب ألا يكون له وجود فى القرن العشرين !! ..

أقول أثار هذا الأمر فى نفسى مجادلات عديدة حول جوهر التصوف ومعدنه وهل هو حقيقة شىء عارض فى حياة البشر وبخاصة من المسلمين أم أنه قطعة من الإسلام يكتمل بها زينة المؤمن فى محفله واتصاله بربه وعلاقته بالآخرين . ولعلى فى هذا المقال أحاول أن أبين الصلة القوية بين التصوف والإسلام من ناحية وبين التصوف والحياة من ناحية أخرى .

ظهر التصوف أول ما ظهر ملازماً للإسلام منذ فجره الناهض فاعتكف قوم على العبادة وانقطعوا إلى الله تعالى وأعرضوا عن زهرة الحياة وزينتها وزهدوا فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه وانفردوا عن الخلق فى الخلوة للعبادة تقربا إلى الله محاولين بذلك أن يحققوا صورة المسلم الحق كما بدت لهم مرسومة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الذكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » وقوله « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور » ولذلك وصفهم أبو نعيم الأصبهانى بقوله : « هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شىء من العروض وعصمهم من الافتتان بها عن العروض وجعلهم قدوة

للمتجردين من الفقراء لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال ، ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا ، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى ، ووصفهم صاحب الرسالة القشيرية بقوله :

أما بعد رضى الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره فهم الغياث للخلق والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف وتحققوا بما منحه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال علما منهم بأنه جل وعلا يفعل مايريد ويختار من يشاء من العبيد لا يحكم عليه خلق ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ثوابه ابتداء فضل وعذابه حكم بعدل وأمره قضاء لا يرد .

وهكذا نرى أن هذه الطائفة العاملة الواعية قد تمثلت الإسلام تمثلا قويا وفهمت معناه فتمسكت بجوهره وتشربت مثله واتخذتها غاية لها تسعى إلى تحقيقها بطريقة شاقة لا يقدر عليها إلا ذو العزائم والمكارم ، وطريقهم فى ذلك : تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى — فيما يقول الغزالى إن طريقهم « تطهير محض وتصفية وجلاء ومحاسبة للنفس ثم استعداد وانتظار للتجلى » .

ولكن ما الدافع إلى هذا الزهو الذى يبدو عند الصوفية ؟ هل هو سلبية وبعد عن الحياة ونفور وضعف وخور أم هو صادر عن قوة عزيمة وشدة مراس؟ الواقع أننا لو نظرنا إلى تاريخ هذه الفئة لرأينا الرد على سؤالنا هذا لا يخرج عن أنهم أطالوا النظر فى الحياة وأمعنوا فى تدبرها وتفهمها فانتهوا إلى أنها غرور من أقبل عليها خدعته ببهرجها وتسلطت عليه بزينتها حتى لا يرى غيرها فى نظره وبصيرته فتعميه عن معرفة الحق والتقرب إلى ذى العزة والاكرام يقول الحسن

البصرى : « الدنيا دار عمل من صحبها بالبغض لها والزهد فيها سعد بها ونفعته صحبتها » ويقول : « ابن آدم نفسك نفسك إنما هى نفس واحدة إن نجت نجوت وإن هلكت هلكت ولم ينفعك من نجا وكل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار يسير » .

أجل ! الدنيا دار غرور وللآخرة خير وأبقى ! ذلك ما يؤمن به الصوفية ، وما ينبغى أن يضعه كل مؤمن نصب عينيه فلو آمن أن غده ليس بين يديه وأن أمسه أصبح بين يدى الله لما بقى له بعد ذلك إلا حاضره القائم ولحظاته الراهنة ، يقبل عليها بحريته التى لا تحد فيملؤها عملا صالحاً أو فساداً وفجوراً . فإن فعل الأولى نجا وإن أقبل على الثانية خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

هل ذلك الذى تهون عليه نفسه حين تقبل على الشهوة وتستعصى على إرادته فيقال له : « ما أشد ما لقيت فى سبيل الله ؟ » فيقول « ما يمكن وصفه » فيقال له « ما أهون ما لقيت نفسك منك » فيقول « أما هذا فنعم ، دعوتها إلى شىء من الطاعات ، فلم تجبنى فمنعتها الماء سنة » . أقول هل ذلك الذى يفعل هذا كله بنفسه وأكثر من ذلك كله يصدر عن سلبية وضعف أم يعقل ما يفعل لأنه يريد أن يحشمها المشاق ويعودها الصبر على المتاعب والمصاعب حتى تهفو وترقى وتصل إلى أكبر غاية وأفضل مورد ؟ .

أجل إن أعمال الصوفية صادرة عن إرادة ايجابية رقوة دافعة لا تحركها دواع سلبية بحال من الأحوال ، وليس أدل على ذلك من تلك الطرق التى يتبعونها من تجلية للنفس وتنقية للقلب وتحلية للخلق واتصاف بالمعروف وإقبال على الخير من جميع موارده ومصادره .

لقد فهموا القرآن وتدبروا معانيه وتحققوا بالشريعة ، وصاح صائح منهم : « إذا نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة » . وهكذا اتصف هؤلاء القوم بصفات سامية واشتهروا بأخلاق حميدة ، وجعلوا أبوابه تقربهم إلى الله ذات منافذ عديدة من توبة ومجاهدة وخلوة وعزلة وتقوى وورع وزهد وصمت ، وخوف ورجاء وحزن وجوع ، وترك شهوة وخشوع

وتواضع ومخالفة للنفس ، وبعد عن الحسد والغيبة واتصاف بالقناعة والتوكل والشكر واليقين والصبر والمراقبة والرضا والعبودية والإرادة والاستقامة والإخلاص والصدق والحياء والحرية والذكر والفتوة والجود والسخاء والغيرة وما إلى ذلك من صفات طيبة وسجايا حميدة ، فهم الفرسان الذين أعلوا من شأن الإرادة الايجابية وقالوا : « الإرادة ترك ما عليه العادة وحقيقتها فهو من القلب فى طلب الحق سبحانه ولهذا يقال إنها لوعة تحوى كل روعة » وهم الذين طلبوا الحرية عن الأغيار ولم يعترفوا إلا بعبودية الجبار القهار سبحانه ذو الجلال والإكرام .

قوم هذه صفاتهم وتلك أخلاقهم وسماتهم ، هل يمكن أن يقال عنهم إنهم قوة سلبية !! لم يكونوا هكذا فى سالف الزمان ولا يكونون فى حاضر العصر والأوان . لقد كانوا ثواراً على التقاليد الجامدة والعاداة البالية ، وفتحوا صدورهم لاستكناه الكون وتلقى همساته وأسراره فاتسعت آفاقهم ورحبت مجالاتهم وأصبحوا ينأون عن الانطواء والعزلة وأثروا الحياة بما لهم من قوة حجة وصحة يقين ، ووقفوا أمام أعيان الحكام يوم ضاعت الذمم ومشى الجميع فى ركاب النفاق والمداهنة وها هو ذا بهلول المجنون رضى الله تعالى عنه اجتمع به هارون الرشيد ، فقال له الرشيد : « كنت أشتهى رؤيتك من زمان » فقال لكنى أنا لم أشتاق إليك قط . فقال له عظنى . فقال بم أعظك ؟ هذه قصورهم وهذه قبورهم . ثم قال : كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق تعالى بين يديه ، فسألك عن النقير والفتيل والقطمير وأنت عطشان جوعان عريان وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون . فخنقته العبرة وبكى بكاءاً مراً .

وهكذا كانوا يقرعون الحكام من آن لآخر بقارعة النذير التى لا تفرق بين العظيم والفقير ، فإذا دغواتهم حق وأقوالهم صدق ولا نزال نطرب ونعجب عندما نقرأ هذه الآيات البينات .

أجل ! ذلك هو الوجه الصحيح للتصوف . التصوف الإسلامى الذى يلتمس ينبوعه من كتاب الله وسنة رسوله ويرتشف من رحيق الإسلام الصافى فيمرع ويفيض ويملأ الدنيا من حوله خيراً وبركات .

ولقد ران عليه — قشرة — غشاوة من الجهل وطامة من البلاء غشيت جميع مرافق الحياة فى الأمة الإسلامية حتى قال صاحب الرسالة القشيرية : « ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل :

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

ولكن بعد انتفاضة الأمة العربية وصحوتها من رقادها الطويل تهيأت لها وسائل القوة والمتعة على يدى رجال الثورة المباركة فعهدوا بالمشاعل إلى من يحسنون حملها ، وكان من ميمون الطالع أن يحمل مشعل التصوف شيخنا وأستاذنا السيد محمد محمود علوان ، فتغاون هو وجلة القوم وأفاضلهم على دفع العجلة إلى الأمام والسير بها فى الطريق الصحيح الذى سوف يعيد للتصوف الإسلامى مجده وسخاءه وثراءه .

والآن بعد أن اتضحت أصالة التصوف الإسلامى وأنه هو والدين الحنيف سيان ، فانى أدعو إخوانى طلبة الماجستير على أن يقبلوا على هذا التراث الضخم بشغف واهتمام ليتصفحوا صفحاته ويستجلوا آياته ويعملوا على تحويده وتبيينه وحسن عرضه حتى ترسخ تلك الدعائم فى الأذهان وتنهض شامخة الذرا قوية البنيان ؟

فوزى عرفة

لا أمة بلا أخـــلاق ...
ولا أخلاق بغير عقيدة . .
ولا عقيدة بغـــير فهم ...

جمال الدين الأفغانى